

خليل السكاكيني

سامية محاميد*

مقدِّمة

ولد خليل السكاكيني عام 1878 وتوفي عام 1953، أديب وناقد فلسطيني، له كبير الأثر في الأدب والسياسة، كان فعلاً طوال حياته، ثار على المؤلف في اللغة، وحارب الفساد في الكنيسة وثار ضد الصهيونية والخونة، وقام بشن حملات أدبية كثيرة ضد الوضع السياسي. أنشأ مقهى الصعاليك الذي جعله مكاناً يضم فيه آراءه الساخرة ضد الوضع المزري الذي ساد ذلك الوقت.

جاء هذا البحث ليكشف عن شخصية السكاكيني، من خلال المرور بمراحل حياته ومحاولة تدوينها بصدق، مستعيناً بمصادر ومراجع تمّ انتقاؤها بصعوبة، وذلك لقلّة ما كتب عن هذا الأديب.

هو خليل قسطندي السكاكيني، ولد في القدس عام 1878، درس في بداية سنوات حياته في مدرسة الرّوم الأرثوذكسيّة ثمّ في مدرسة صهيون البروتستانتية وتخرّج منها، وقد وصف نفسه في يومياته⁽¹⁾، كذا أنا يا دنيا: "أقدم ما أتذكّر من أيّام طفولتي أنّنا كنّا نعيش في دارنا داخل المدينة، وكان شعري أحمر بلون شعر سريّ (ابنه) وسلطانة اليوم (زوجته)، وأنّه كان مرسلًا، بحيث كان يضفّر كشعر البنات، وأبي كنت سمينًا، بحيث كنت مع قصيري كالكرة أتدحرج تدحرجًا، وإذا كنّا نلعب مع إخوتي وأولاد عمّي

* باحثة ومدريسة - معاوية - أم الفحم.

¹ - أحمد حسن حامد، السكاكيني في النهضة الفكرية، مكتبة النّجاح، ط2، 1997، ص 9.

في "حوش" الدّار ونملاً الجوّ بأصواتنا، وقد كنّا نسكن سنة في دار، داخل المدينة وسنة في دارنا خارج المدينة".⁽¹⁾

وقد كان السّكاكيني مميّزاً في شخصيّته كثيراً فقد أحبّ الحيوانات الأليفة وأحبّ العمل ولم يفضّل الرّاحة، فكان يعمل في العطل الصّيفيّة في التّجارة، كما أنّه مارس هوايات عديدة كالصّيد والمشي صباحاً، يقول في يومياته: "أولعت وأنا دون العاشرة بالصّيد، فمرّت بي ثلاث سنوات وأنا لا أكاد أفارق بندقيّتي قبل ذهابي إلى المدرسة وبعد رجوعي منها في المساء، ومن الصّباح إلى المساء في أيّام العطل، وكنت إذا لم أجد ما أصيده أصيد حمام الجيران، بل كدت مرّة أصيد أخي، إلى أن وقع في يدي كتاب يرقّق قلبي على الطّيور والحيوانات، ويقبّح الصّيد ويعدّه أثراً من آثار الوحشيّة فهجرت من فوري بندقيّتي".⁽²⁾

ثمّ إنّه كان قويّ الجسم محبوباً من غيره من الأولاد، يقول في يومياته: "ولم يكن في المدرسة أحد أقوى مني جسمًا، فكُنّا في أوقات الفراغ نتصارع فكنت أصارع أربعة أو خمسة معاً، ولم يكن أحد يستطيع أن يزحزح قدمي عن الأرض، ولذلك كنت ذا نفوذ بينهم... وفي عطلة المدرسة الصّيفيّة كنت أشتغل بالتّجارة، وكنت محبوباً عند كلّ من كان يشتغل هناك من بنّائين ونجّارين وغيرهم، وكنت في يوم السّبت، حين يذهب المشتغلون ليقبضوا أجرتهم من رئيس العمل، أتخلّف عن الدّهاب معهم لأتي كنت أخجل أن أقف موقفهم وأمدّ يدي لأتناول أجرتي. كنت أتلذّد بالعمل في أيّام

¹ - خليل السّكاكيني، كذا أنا يا دنيا (سيرة ذاتيّة)، المطبعة التّجاريّة، القدس، 1955م. ط2 اتّحاد

الكتّاب الفلسطينيّين، بيروت، 1982، ص 13.

² - السّكاكيني خليل، ما تيسّر، مذكّرات ويوميّات، ج 2 ص 17.

العطلة ولا سيّما وقد كنت محبوبًا، إمّا لأني صغير السنّ سريع الحركة أو لأنهم كانوا يحسنون معاملتي إكرامًا لخاطر أبي، لأنهم كلهم تلاميذه في صنعة النجارة".⁽¹⁾

وقد تميّز السكاكيني بأنه «إنسان من طراز عالٍ، تميّز بأنه مربّ من طراز رفيع، وكان همُّ السكاكيني الأوّل أن يكون التّعليم أوّلاً وطنيًّا وثانيًا صحيًّا. وكما نَعَمَ لبنان بأعلام لغويّين أمثال اليازجيين والبستانيّين، نعمت فلسطين بالمعلّم نخلة زريق أحد أركان النّهضة الأدبيّة الحديثة في فلسطين، الذي غرس في طلابه، والسكاكيني في طليعتهم، حبّ لغة الضّاد وتقديسها والمغالاة بها وإيثارها على سائر اللّغات.⁽²⁾

بعد ذلك دخل السكاكيني في مرحلة اضطراب أحسن بأنّ حياته في نهايتها، وقد عانى في هذه الفترة أمرين كان لهما كبير الأثر في حياته، وهما الحبُّ والفقر، وبسبب الفقر سافر إلى إنجلترا ل يبحث عن عمل، وهناك لم يحالفه الحظُّ فسافر إلى أمريكا. "فما كاد يحطُّ رجله في أمريكا حتّى راح يبحث عن عمل فاستُخِدم أوّلاً كاتبًا في متجر، ولكنّه لم يبق فيه سوى يوم أو بعض يوم، فراح يتعزّر بأذيال اليأس وحاول أن يتعلّم، وهو في أمريكا التّجارة، غير أنّه أخفق أيضًا، فأخذ يعطي بعض التّلاميذ هناك دروسًا خصوصيّة".⁽³⁾ في أمريكا كانت الأزمة الاقتصاديّة في أوجها عندما رحل إلى نيويورك، وهناك رأى أمريكا على حقيقتها، فقد انتقدها بشكل كبير، لقد كتب في

¹ - خليل السكاكيني، كذا أنا يا دنيا (سيرة ذاتيّة)، المطبعة التّجاريّة، القدس، 1955م. ط2 اتّحاد الكتّاب الفلسطينيّين، بيروت، 1982م.

² - أحمد عمر شاهين، موسوعة كتّاب فلسطين في القرن العشرين، دائرة الثّقافة في منطّمة التّحرير الفلسطينيّة. طبعة أوّلى: 1992.

³ - لجنة تكريم ذكرى السكاكيني: ذكرى السكاكيني، القدس، المطبعة العصريّة 1957، ص11.

كثير من الرّسائل ينتقدهم بأنهم يمشون بسرعة ويأكلون بسرعة وأنهم بسبب ذلك أنسوا مطاعم الوجبات السريعة والتي يأكل فيها الرّبائث وهم واقفين.⁽¹⁾

انتهت فترة الاضطراب الذي عاشه السّكاكيني عام 1908 عندما رجع إلى القدس، فتكلّلت قصّة حبّه بزواجه من سلطنة التي اعتبرها قصّة حبّ حياته، وقد أحبّها حتّى وافتها المنيّة، وأثّرت عليه كثيرًا، ورزق منها بابنه (سري) الذي كان له كبير الأثر في نفسه. بعد ذلك قام بإنشاء مدرسته الدّستوريّة التي أخذت تدبّر عليه من المال قسطًا وافرًا جعله وأسرته يعيشون في حالة ممتازة، وقد كان يعمل في مجال التّعليم فضلًا عن عمله في المدرسة الدّستوريّة.

ثمّ تغيّرت الأحوال عام 1924 فعاد الفقر يدقّ بابه، وهنا قام هو وأصحابه بإنشاء حزب الصّعاليك والذي عبّر بالسّخرية بالأحاديث عن الأوضاع السّياسيّة والاجتماعيّة الصّعبة. وقد وضع له قانونًا خاصًا و 13 مبدأ عبّرت عن آرائهم.⁽²⁾

حياته السّياسيّة:

لقد حفلت المرحلة التي عاشها السّكاكيني بالأحداث الكبيرة والخطيرة التي مسّت وطنه وأصابت الأقطار العربيّة كافّة، فقد عين مظالم عبد الحميد ومفاسد العثمانيين، كما أنّه شهد بروز الصّهيونيّة وبداية جذورها 1882 عندما بدأت الهجرة الأولى، وتألّم من رجال الدّين اليونان الذين تسلّطوا على الطّائفة الأرثوذكسيّة التي ينتسب إليها في وطنه في فلسطين. وقد كانت فلسطين آنذاك من النّاحية الإداريّة تشتمل على متصرفيّة التي ضمّت غالبية الأراضي وثلاثة أرباع السّكّان، وكان تابعًا

¹ - تماري سليم، الحبّ والجوع في نيويورك: خليل السّكاكيني، يوميّات، رسائل وتأمّلات، 2003، ص35.

² - أحمد حسن حامد، السّكاكيني في النّهضة الفكرية المعاصرة، مكتبة النّجاح، 1997، ص12.

لوزير الدّاخلية العثماني مباشرة، كما كانت أيضًا الشّام وبيروت متصرفيّة فكانت الثّلاث ولايات تسمّى سوريا الجنوبيّة تعبيرًا عن موقعها الجغرافي.

وقد حاول السّكاكيني من خلال المنشورات والجرائد والمجلّات، إيقاظ القوميّة الوطنيّة والحماسة في قلوب الشّباب، وذلك من خلال الثّورات والمعارضات ضدّ السّياسات التّركيّة، ولكن ما حصل لم يعنِ أنّه قد تحقّقت كلّ طموحاته، بل إنّ هنالك الكثير من الأمور الّتي كان يودّ إصلاحها ما زالت كما هي، لم تتغيّر.⁽¹⁾

قام السّكاكيني بنشاطات إصلاحية مختلفة، وقد بدأ في الجمعيّة الأرثوذكسيّة، فقد انتبه أنّها غير فعّالة وأنّ هنالك فسادًا اجتماعيًا وسياسيًا تستطيع الحوّل دون تطوّره وتفشيّه في الشّعب فساعد على تفعيلها، وبسبب الآمال الكبيرة الّتي وضعها المسؤولون في الجمعيّة فقد انضمّ إليها عدد كبير على أمل أن يغيّروا السّلطنة التّركيّة، لكي يتحقّق العدل والمساواة في جميع أرجاء الدّولة الفلسطينيّة، وكان من بين من انضمّوا السّكاكيني الّذي أدّى اليمين بأنّه سيحافظ على الدّستور، وسيعمل على تغيير الفساد وتحقيق العدل والمساواة. ومن المؤكّد أنّ التّصوّر عنده كما كان عند غيره، بأنّ الدّستور الّذي رأى النور على يد جمعيّة الاتّحاد والتّرقّي سيطلق فجر الحرّيّة، وشمس العدالة على العرب والأتراك، فيعيش الشّبان عهدًا جديدًا مضيئًا، إذ لم تكن روح العداة للأتراك والرّغبة في الانفصال عنهم قد ظهرت بالفعل، وذلك لأنّ التّزعة الطّورانيّة العنصريّة لم تكن قد تبلورت عند جماعة الاتّحاد والتّرقّي وأخذت تمارس بالعلن، واكتشف مبكرًا أنّ هذه الجمعيّة ليست هي الجمعيّة الّتي

¹ - يوسف أيّوب حدّاد، خليل السّكاكيني حياته مواقفه آثاره، الاتّحاد العام للصحّافيين ص121.

يمكن من خلالها أن يحقق طموحاته، فقد تبين له أن جمعية القدس عبارة عن محكمة عليا تهتم بالشكاوى فقط.⁽¹⁾

هذا الأمر جعله يضاعف من نشاطه الملي فأسس جمعية الإخاء الأرثوذكسي، وكان العاملون فيها من غير الأعضاء العاملين بالمجلس الملي. ثم قام بتأسيس فرع لها في القدس. ولم يغب لحظة عن أي نشاط سياسي جرى في القدس، فكان يلقي الخطابات ويقى المهرجانات، وقد عقد النية أن يكون حماسياً فقال: "عقدت النية أن أتعهد هذه الحماسة التي يبديها الشبان من وقت إلى آخر، فلا تعترض الأمم إلا بمقدار ما في صدور شبابها من الحماسة".

إنتهى إلى العديد من الجمعيات وقام بنشر الوعي والمعرفة، فتبلور الأفكار وتتوحد حول العمل الجماعي لرفعة الوطن وخدمته. كانت طموحات السكاكيني كبيرة جداً ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد لاقى المعارضة من الإكليروس المتسلط على الطائفة، ذلك أن الإصلاح هو زوال نفوذه ومنافعه، وهو ما لا يريد حصوله ثم اصطدم بالوجهاء الذين تعارضت مصالحهم مع كل ما سيحصل من إصلاح. ومن جهة أخرى بدأت الجمعيات المشتركة مع الأتراك بالخيانة والتعاطي مع الحركة الصهيونية، كل هذا دفعه إلى السكون فترة والتوجه إلى النشاط الأدبي الذي كان قد بدأ به قبلاً.⁽²⁾

¹ يوسف أيوب حداد، خليل السكاكيني، حياته، مواقفه وآثاره، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، 1991، ص 127.

² - المصدر السابق، ص 128.

نشاطه الأدبي:

انقسم نشاط السكاكيني الأدبي إلى العديد من الأنواع، فقد كتب في اللغة مطالعات في اللغة والأدب (1925)، ثم كتب مجموعة من المقالات في الأدب والنقد، كما ألف كتاباً في الشعر رثى فيه زوجته سلطنة. ثم كتب سيرته الذاتية "كذا أنا يا دنيا". والذي سنتكلم عنه لاحقاً.

اقرب من عالم الصحافة بتنقيح مسودات مجلتي: الأصمعي والقدس، ثم أسس (1909) المدرسة الدستورية، وفي (1914) أصبح عضواً في قوميون المعارف بالقدس، وفي (1919) عمل مديراً لدار المعلمين بالقدس، ثم سافر إلى مصر (1920) وبقي فيها عامين، حيث عمل مديراً للمدرسة العبيدية.

و"لعلّ السكاكيني أول رجال النهضة الذين عملوا على إدخال الكتابة في طور جديد، فقد عمل على إحياء أسلوب جديد للكتابة، يخلو من الأسجاع الملققة والمحسنات البديعية المتكلفة. وكان من أوائل الأدباء الفلسطينيين الذين كتبوا في الصحافة، وأخذوا بالأساليب العصرية، وتميّزوا بشخصية أدبية مستقلة. وكان يرسل عدداً غير قليل من كبريات الصحف والمجلات الأدبية في العالم العربي، وينشر فيها المقالات التي تحمل مبادئه الأدبية والإنسانية والاجتماعية، مما أكسبه شهرة واسعة. ولقد أثار قضايا أدبية هامة في كتاباته على صفحات الجرائد، وخاصة في المعركة التي أثارها مع الأمير شبيب أرسلان حول القديم والجديد على صفحات جريدة «السياسة» و«الشورى» وغيرها.⁽¹⁾

¹ - حسين العودات وياسين الشكر، الموسوعة الصحفية العربية، الجزء الأول: (بلدان المشرق العربي: سورية. لبنان. فلسطين. الأردن)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس. 1990م.

وفي هذه الفترة "زادت مساهمة الصُّحف في تطوير الأدب، عندما جعلت من صحافتها محفلاً لنقاشات الأدباء حول الأدب والثَّقافة وحول النَّقد الأدبي أيضًا، وهو الأمر الذي ساعد على بلورة الاتِّجاهات الأدبيَّة والفنِّيَّة والنَّقديَّة الجديدة".

ويمكننا القول إنَّ مرحلة نشوء الثَّقافة الفلسطينيَّة قد عرف فيها الأدب اتِّجاهين واضحين، أحدهما يدعو إلى إحياء الأساليب العربيَّة الأصيلة في التَّعبير، ويحتفل باللفظ الفصيح والتَّراكيب البليغة أيضًا، وقد مثَّل هذا الاتِّجاه الأديب محمَّد إسعاف النَّشاشيبي. وأمَّا الاتِّجاه الآخر فيدعو إلى الاحتفال بالمعاني وتقديمها على الألفاظ، مؤكِّدًا على الاكتفاء بسلامة هذه الألفاظ لغويًّا، ومثَّل هذا الاتِّجاه الأديب خليل السَّكاكيني.⁽¹⁾

كما كان لكلِّ من الأديبين خليل السَّكاكيني وإسعاف النَّشاشيبي أسلوبه الخاصُّ في الكتابة، دون أن يُحدث الاختلاف في الأسلوبين خلافًا وخصومة بينهما، فإنَّه في مجال النَّقد الأدبي كان لكلِّ منهما أسلوبه المختلف عن الآخر، والمستمدُّ من نفس المسوِّغات التي أسَّس عليها كلُّ منهما أسلوبه في الكتابة.

آثاره القلميَّة:⁽²⁾

1. الاحتذاء بحذاء الغير، القدس، 1896م.
2. النّهضة الأرثوذكسيَّة في فلسطين، القدس، 1913م.
3. مطالعات في اللُّغة والأدب، دار الأيتام الإسلاميَّة، القدس 1925م.
4. فلسطين بعد الحرب الكبرى، القدس، 1925م.

¹ - محمَّد سليمان: مقالة: صحف البدايات (1904 - 1922م) تؤسِّس للنّهضة الأدبيَّة الفلسطينيَّة»، موقع مجلَّة "رؤية" الإلكتروني [www.idsc.gov.ps] ، بلا تاريخ نشر.

² - أحمد حسن حامد، 1997، 32 - انظر أيضًا، أوس داود يعقوب، 2010.

5. الجديد في القراءة العربيّة (4 أجزاء)، القدس، 1924م و1933م.
6. سرّي، المطبعة التجاريّة، القدس، 1935م.
7. حاشية على تقرير لجنة النّظر في تيسير قواعد اللّغة العربيّة، مطبعة بيت المقدس، القدس، 1938م.
8. لذكراك، المطبعة العصريّة، القدس، 1940م.
9. وعليه قس، القدس، 1943م.
10. ما تيسّر (جزءان)، المطبعة العصريّة، القدس، 1943م و1946م.
11. الأصول في تعليم اللّغة العربيّة، جزءان: الدليل الأوّل والدليل الثّاني، القدس، 1934م و1936م، ط2، دار الاعتماد، القاهرة، 1952م.
12. معالم التّاريخ القديم، (ترجمة)، بالاشتراك مع وصفي عنبتاوي وأحمد خليفة سنة 1942.
13. كذا أنا يا دنيا (سيرة ذاتيّة)، المطبعة التجاريّة، القدس، 1955م. اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين، بيروت، طبعة ثانية: 1982م.
14. أعزّائي، (سيرة) 1978م.
15. الأعمال الكاملة للسّكاكيني (جزءان):
أ- الأدبيّات، (مقالات السّكاكيني الأدبيّة)، المطبعة العصريّة، القدس، 1962م.
ب- "مقالات السّكاكيني اللّغويّة".
16. يوميات خليل السّكاكيني، يوميات رسائل، مذكّرات، (4 أجزاء) تحرير أكرم مسّلم، مؤسّسة الدّراسات المقدسيّة في رام الله ومركز خليل السّكاكيني الثّقافي، صدرت بين 2003م و2005م.
وللسّكاكيني آثار مخطوطة منها كتاب (آدم)، إضافة إلى مقالاته الكثيرة المنشورة في الصّحف والمجلّات العربيّة في اللّغة والأدب.

النشاطات الدينيّة:

تضافرت عوامل متعدّدة وراء ثورة السّكاكيني على الكنيسة وانفصاله عنها ونقمتها عليها، لكنّ هذه الثّورة التي بدأت بيضاء من مجالس الملة انقلبت إلى ثورة لاهبة صاخبة، بعد أن جوبهت حركة الإصلاح بمعارضة صارمة وعناد حادّ. وكانت دوافع السّكاكيني الإصلاحية تعود لعدّة عوامل، منها أنّه كان منفتحاً عقلياً في مفهومه الديني لا يؤمن بالقشور ولا يرضى بالسكوت على الخرافات الطقسية التي يتقنها الرهبان لأغراضهم الخاصة، ومنها استشراء الفساد والتعالي في جسم البطريركية الأرثوذكسية ومؤسّساتها، ومنها اغتصاب اليونان الإكليركيين لسلطات الكنيسة العليا وحصر المراتب الدّنيا بالعرب أهل فلسطين، الأمر الذي لم يستسغه الأرثوذكس عامّة والسّكاكيني خاصّة، وهو النّاقم على الغرب والمتمسك بشرقية. خلافاً عن ممارسات البطريركية في حضور حفلة إعلان الانتداب التي أعلنت الحركة الوطنيّة الفلسطينيّة مقاطعتها، وبقيامها ببيع أراضي الأوقاف للصّهاينة.⁽¹⁾

كلّ هذا أدّى به إلى القيام بشنّ حربٍ على الكنيسة، ولتمسّكه الشّديد بعروبوته دعا الكنيسة إلى تعريب لغتها، وتعريب الصّلوات فيها، وطالها بأن لا يصلى فيها باللّغة اليونانية وأن لا تستخدم فيها إلاّ اللّغة العربيّة، ونشر في هذا الصّدّد منشوراً عام 1913م بعنوان "النهضة الأرثوذكسية في فلسطين". وقد أدّى هذا الأمر إلى مواجهة مع الكنيسة كانت نتيجةها أن انشقّ (خليل) على الكنيسة، بعدما فشلت حركة "الإصلاح" التي بشّرها وقادها بجرأة، فأصدرت الكنيسة بأمر من البطريرك اليوناني (ذميانوس) "حرماناً" بحقه، ومنعت على رعيّتها مخالطته والإصغاء إلى آرائه، ثمّ

¹ - حدّاد، خليل السّكاكيني، ص 184.

رفضت تزويجه وأخرجته من المنزل الذي كان يسكنه، وهو منزل تابع لـ "دير الرُّوم" في القدس.⁽¹⁾

عندها أعلن السكاكيني "لست أرثوذكسيًا". ثمَّ قام بخوض حرب ضارية على الكهنوت اليوناني.

وقد رأى السكاكيني أنَّ سيطرة رجال الدِّين على الدَّولة من الأمور الَّتِي تضعف كيانها وتدخل الفساد إليها لأنَّهم يقومون بالكثير من الأعمال باسم الدِّين والقداسة. ثمَّ تحكَّم رأس الكنيسة بشؤون النَّاس على طريقة الرَّاعي والقطيع والعصا. ولمَّا أيقن أنَّ هذا المثال غير جدير بالافتداء راح يجاهر بأرائه في رفض الطُّقوس كَلِّها، وشرع يدعو إلى الأخذ بروح الإنجيل لا بطقوس الكنيسة، وكان يرِدُّ قول الإنجيل: "الحرف يقتل والرُّوح يحيي". ثمَّ قاد حركة إصلاحية داخل الطائفة "الأرثوذكسية" للتخلُّص من استبداد (الإكليروس اليوناني)، وكان لا ينفكُّ قائلاً: "لا تخافوا السَّماء لأنَّ سلطتهم (أي سلطة رجال الدِّين) ليست من السَّماء".⁽²⁾

مرحلة الحزن

بعد ذلك مرَّ السكاكيني بثلاثة أمور أوجعت قلبه كثيرًا، وتعدُّ هذه الأمور هي المرحلة الأخيرة في حياته. أولى هذه الأمور كان وفاة زوجته سلطنة، فقد أحبَّها حبًّا كبيرًا ما أثر على كتاباته، فراثها في كتاب كامل هو "لذكرالك" وجعل لها فصلًا في يومياته أسماه "دعونا نقرض". لم يجد السكاكيني طعمًا للحياة بعد موت سلطنة أو "صاحبة الجلالة" كما كان يدعوها.

ومن قصيدته في رثائها:

¹ - أوس داود يعقوب، خليل السكاكيني، مؤسَّسة القدس للثقافة والتُّراث، موقع إلكتروني.

² - المصدر السابق.

قفا نيك

في رثاء زوجته (سلطانة)⁽¹⁾

قفا نيك من ذكرى أذابت حُشاشتي
 قفا أسعفاني في مُصابي، فإنني
 لقد كنتُ قبل اليوم أحسبُ أنني
 وأني كبيرُ القلب، لا تستخفه
 وأني على حظٍّ من العلم صالحٍ
 فلمّا دهاني ما دهاني، وجدّتي
 رجعتُ إلى قلبي، وأين اصطبارُهُ؟!
 وقلت: لعلّ الشّعْرَ ينفَعُ في الأسي
 تلقّيتُ عليّ أن أراها فُجاءةً
 وقلت: هنا عاشت، وهذا مكائها
 فلم ألقَ إلّا خُدعةً بعد خُدعةٍ

ولا تبخلا بالدمع، فالدمعُ حاجتي
 أراه مصابًا قد تجاوز طاقتي
 صبورٌ على الأرزاء يقرعَن ساحتي
 حوادثُ هذا الدهرِ إمّا توالّت
 على قدر ما قد زوّدتني ثقافتي
 ضعيفًا جزوعًا ذا شجى وكآبةٍ
 وراجعتُ ما أدري، وأين درايتي؟!
 لعلّي أرى فيه قضاءً لبّاني
 وأصغيتُ عليّ أن أفوز بنامةٍ
 وكدتُ أناديها على مثل عاداتي
 ولم ألقَ إلّا ما يشقُّ مرارتي

وتأتي المصائب متتابعة فتحلُّ نكبة فلسطين 1948، ممّا يودي ببيته الجميل الذي لم يكن قد أكمل فيه عشر سنوات، فيخرج منه غضبًا، يقول في يومياته يودّع البيت والمكتبة: "الوداع يا دارنا! يا مستودع الأمانات، يا مجمع الخللان يا مقصد الزوار في الليل والنهار، لم يكن يمرُّ بك أحد ولا ابن سبيل إلّا دخل وشرب القهوة، وإذا كنّا على الطّعام أشركناه في ما تيسّر، الوداع يا دارنا يا دار الأمّة! يا ملتقى أقطاب السّياسة ورجال الصّحافة وكبار الخطباء والفنّانين من مصر ولبنان وسوريّا والعراق! الوداع يا دارنا، يا مستقرّ القيادة، يا مستوصف الجرحى، يا ملاذ اللّاجئين"⁽²⁾.

¹ - النسخة الإلكترونيّة لمعجم البابطين للشّعراء العرب المعاصرين.

² - السّكاكيني، كذا أنا يا دنيا، ص 339.

ثمَّ ينتقل السَّكاكيني إلى وداع مكتبته قائلاً: "الوداع يا مكتبتني يا دار الحكمة، يا رُواق الفلسفة يا معهد العلم ويا ندوة الأدب، الوداع يا كتبي، لست أدري ما حلَّ بك بعد رحيلنا، أُحْرِقْتِ؟، أُنْقِلْتِ معرَّزة مكرَّمة إلى مكتبة عامَّة أو خاصَّة؟، أصرتِ إلى دكاكين البقَّالين يَلْفُ بأوراقك البصل؟ يعزُّ عليَّ أن أُحرم منك وقد كنت غذائي الرُّوحي وكنْتُ ولا أزال شرَّها إلى هذا الغذاء، لقد كنت الأزمك في ليلى ونهاري، ولم يزرني أحد في اللَّيل أو النَّهار إلَّا وجدني منكبًّا على كتبي".⁽¹⁾

هذا الأمر جعله يغادر إلى القاهرة قسرًا وقضى بها بضع سنوات كانت مليئة بذكرياته الحزينة التي ملأت قلبه وفكره، ومن ثمَّ وفي عام 1953 فاجأه خبر وفاة ابنه سرِّي، الَّذي كسر قلبه وروحه، بعد أن انتهت من حياته آخر شعلة أضاءتها. هذا الأمر أصابه بالإحباط والحزن الَّذي لم يصبر عليه، فوافته المنية بعد موت ابنه بثلاثة أشهر.

نظرة في كتاب "كذا أنا يا دنيا":

كان السَّكاكيني يرى في قلمه صديقًا يروي له كلَّ ما يحصل في حياته وكيانه، فكان إذا حصل معه شيء دونه على أوراقه، فكتب آراءه في السِّياسة والأدب والدين، وعند موته قامت ابنته بجمع كلِّ ما كتبه في كتاب وأسَمته "كذا أنا يا دنيا" وهو بداية بيت شعر للمتنبِّي الشَّاعر المفضَّل للسَّكاكيني:

كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهب ويا نفس زيدي في كرائها قُدِّمًا

ويحتوي الكتاب على اثني عشر فصلًا، وذلك تسهيلًا لقراءته، يبدأها بالحديث عن سلطنة فمَّثل لحيِّه لها وتلَّهفه عليها، وقطع نثرية في وصفها من بداية الفصل حتَّى

¹ - يوسف أيُّوب حدَّاد، خليل السَّكاكيني، حياته، مواقفه وآثاره، تقديم أنيس صايغ، الاتِّحاد

العام للكتَّاب والصحَّفيين الفلسطينيين، بيروت - 1981م.

نهايته. وفي الفصل الثَّاني تحدَّث عن أمريكا وما حصل معه هناك، والمصاعب التي واجهها عندما حاول الحصول على عمل ليعيل أسرته. أمَّا الفصل الثالث فيحتوي على دور الحركة الأرثوذكسيَّة وما قام به لأجل رفعتها. في الفصل الرَّابع يشرح عن نشاطاته في مجالات التَّربية والتَّعليم، وفي الخامس وصف للحرب العالميَّة وأهوالها، وخصَّص الفصل السَّابع للفترة التي قضاها في السُّجون في أوائل الانتداب البريطاني. في الفصل الثَّامن تحدَّث عن رحلته للقاهرة وإدارته لقسم العربية في العبيديَّة، والتَّاسع عبارة عن رسائل بعث بها إلى ولده من سنة 1931 إلى 1937، وقد قامت هذه الرِّسائل عنده مقام اليوميَّات، فكان يخاطب نفسه فيها ويبين آراءه وانتقاداته للنَّاس.⁽¹⁾

مبادئ السَّكاكيني:

في مقال فيصل درَّاج⁽²⁾ يحدِّد المبادئ التي آمن بها السَّكاكيني والتي أوردتها في يوميَّاته، وأولى هذه المبادئ: "التَّشبُّث بمنظومة أخلاقيَّة صارمة قوامها الصِّدق لنزاهة وشجاعة الرُّأي وازدراء التَّكسُّب والمجاراة، الأمر الذي وضع في أقواله وأفعاله أبعادًا طهرانيَّة واضحة. ويتجلَّى المبدأ الثَّاني في تقديس العمل الدَّؤوب المنظم، وتأكيدُه تعبيرًا عن الإنسان السَّويِّ وخالقًا في آن واحد. ويصدر المبدأ الثالث عن التُّزوع إلى التَّمرد الصَّحيح، يملي عليه أن يرفض ما يجانب العقل والمنطق، حتَّى لو أقبل عليه الآخرون وقبلوا به. أنتجت هذه المبادئ الثَّلاثة شخصيَّة تختلف عن غيرها، لها دور ثقافي فلسطيني وعربي، ولها موقع تربوي وريادي في فلسطين وما يحيط بها، وذات

¹ - حدَّاد، السَّكاكيني، ص 24-32.

² - فيصل درَّاج، السَّكاكيني: القضيَّة الوطنيَّة وأحلام المثقَّف الرَّاقي: يوميَّات خليل السَّكاكيني، رام الله 2003، ص 11.

حضور وطنيٍّ فعَّال، يتوزَّع على الكتابة والمظاهرة والخطابة، ومبادرات وطنيَّة تنوُّعيَّة اصطدمت في معظم الأحيان بعوائق كبيرة.⁽¹⁾

لقد تبنَّى السَّكاكيني بعض النَّظريَّات والآراء لأشخاص أحبَّهم وقَدَّروهم ومن أهمِّهم، الشَّاعر المتنبِّي، والفيلسوف الألماني نيتشه والسَّيِّد المسيح، فهو أحبَّ فكرة الإنسان الأعلى الَّذي يكون مستعدًّا لخوض الكلِّ من أجل طموحاته وآماله، ولذلك فقد أعجبه مبدأ القوَّة في فلسفة الفيلسوف الألماني، كما أنَّ فتنة المتنبِّي قائمة على الطُّموح اللَّانهاي في حياته، كما أنَّ السَّيِّد المسيح لم ييأس أبدًا بل جاهد دائمًا في سبيل طموحه وإيمانه برقيِّ الإنسان.

حاول السَّكاكيني الفصل بين أنواع الأشخاص، ولذلك فهناك فرق بين الإنسان الَّذي يعيش حالة مرضيَّة وبين الإنسان الَّذي يستولد حالته من الثَّقافة والإرادة والأخلاق. ولذلك فقد كتب رسالة إلى ولده سرِّي قال فيها: "أكره سوء الاستعمال أيًّا كان مصدره، أكره الحاكم الَّذي يراعي الخواطر ويحابي الوجوه، الَّذي لا يكون عادلاً إلا إذا كان العدل لا يغضب أحدًا ولا يرضي أحدًا، الَّذي لا يكون حازمًا إلا مع المستضعفين المنذلين، أكره الحاكم الَّذي ينظر بغير عينيه ويسمع بغير أذنيه، ويسير بغير رأيه ويعتمد على غير عقله، ويستلسم إلى غير وجدانه، بل يكون آلة صمَّاء في أيدي ذوي الأغراض والمطامح بصرفونه كما يشاؤون". (6.11.1943).⁽²⁾

حارب السَّكاكيني الاختلال الَّذي كان موجودًا في الكثير من الفئات والجمعيَّات، لذلك فإنَّه استقال من دار المعلِّمين في القدس احتجاجًا على دخول المندوب السَّامي الصُّهيوني، حتَّى إنَّه عندما دعاه المندوب السَّامي، فإنَّه لم يقبل بهذه الدَّعوة. وقد

¹ - المصدر السابق.

² - المصدر السابق، ص 13.

كره الوظيفة لكرهه للسلطات السياسيّة، كتب يقول: "ما رأينا ملكًا أو أميرًا بين الفلاسفة، ما رأينا ملكًا أو أميرًا يبحث في أمور البشر أو في حقوق البشر، وفي حرّيّة وإصلاح البشر وإسعادهم. بل رأينا بوذا قد تخلّى عن الملك وانضمّ إلى الصّعاليك بعد أن عانى من الشّقاء ما لا يطاق، وقد يشبهه النّعمان الأكبر ربُّ الخورنق والسّدير، فقد اعتزل الملك وترك قصره وهام على وجهه ولم يربعد ذلك ولعلّه انتحر لأنّه رأى في الحياة عبث."⁽¹⁾

عندما بدأ الكيان الصّهيوني بالتوغّل في فلسطين خاف السّكاكيني كثيرًا، ولكنّ خوفه لم يكن من الصّهيوني نفسه، بل من الوسائل التي كانوا يتعاملون بها، فقد رأى في نظامهم وتصرفاتهم وتديبرهم للأمور من الحكمة، بما لا يوازي ولو بالقليل ما لدى العرب الفلسطينيّين من الفوضى والشّتات والتّفكك. لذلك فقد تشاءم وتوقّع أن يكون التّوغّل قويًّا.

هاجر السّكاكيني من وطنه ثلاث مرّات، الأولى عندما ذهب إلى أمريكا ليبحث عن الرّزق والثّانية عندما نُفي إلى دمشق عام 1918، والثّالثة عندما رحل مع أسرته إلى القاهرة، وتقوم شهرته على أنّه كاتب ومفكّر مقدسيّ، وتربويّ تقدّميّ، ومفكّر حرّ يقف والمؤسّسة الدّينيّة على طرفي النّقيض. وتعدّ يومياته في تقدير ناقد أدبي متميّز، إيدانًا بدخول الأدب الفلسطينيّ مرحلة الحداثة، لقد كان منهجه في التّدريس الّذي طبّقه في المدرسة الدّستوريّة التي أنشأها قبل الحرب العالميّة الأولى ثوريًّا بالنّسبة لكلّ معاصريه تقريبًا. ألغى العقوبات البدنيّة للطلّبة بوصفها "بربريّة وتعود إلى القرون الوسطى". واستبدل بالامتحانات تقييماً ذاتيّاً يقوم به الطّلبة والمعلّمون. وطلب من المعلّمين أن لا يسجّلوا أسماء الطّلاب المتغيّبين، كان للطلّبة الحرّيّة في

¹ - المصدر السّابق، ص 17.

ترك المدرسة والدّهَاب إلى البيت إذا شعروا بالملل. وقد شعر أنّ هذا يجبر المعلّم على أن يكون ممتعًا ومجيدًا لكي يحافظ على اهتمام الطلبة. كلُّ هذا أنشأه السكاكيني في أوائل العشرينات.⁽¹⁾

من مواقف السكاكيني المشهورة والتي تبرز دعوته إلى التّجديد، موقفه من اللّغة والأسلوب: فقد آمن السكاكيني بأنّ اللّغة وسيلة لا غاية على عكس القدامى، كما آمن بالاعتماد على الأصالة والطّبع في الأسلوب ونبذ التّقليد والصنعة والتكلف. الأدب في مفهومه صورة للحياة والواقع يمثّل العصر ويدلُّ عليه، ولا يكون خارج دائرة زمان ومكان صاحبه، لذلك فهو يدعو إلى الوضوح والابتعاد عن التّعقيد والتّعقُر. من هنا هاجم الشّعراء "الذين لا يستوحون عقولهم وقلوبهم، بل يستوحون القدماء فيستعبرون معانيم وألفاظهم، كما هاجم ما شاع في عصره من استعمالات أدبيّة كالتّضمين والاقْتباس والتّلميح وسائر الهلوانيّات اللّفظية".⁽²⁾

يقول: "إذا كان لا بدّ للكاتب أو الشّاعر أن يستعير معاني غيره ويستعين بألفاظه، فعليه ألاّ يسرف في ذلك. وإلّا كان كلامه صدّى مردّدًا، هذا إذا لم نُعدّه مسروقًا، وعلى أن يكون ما يستعيره من المعاني وما يستعين به من الألفاظ ممّا يعينه ويقتضيه الحال الذي هو فيه، وإلّا فقد يكون ما يعنيه أو ما يقتضيه الحال شيئًا وما يكتبه آخر، وهذا هو التّكلف بل الجمود والتّفاق".⁽³⁾

ويقول أيضًا مهاجمًا التّكرار والتّرادف الشّائعين في عصره: "وممّا أُولع به أصحاب المذهب القديم إلى يومنا هذا، تكرار الكلام في غير مواطن التّكرار، والإسراف في

¹ - المصدر السّابق، ص 23.

² - عدنان أبو غزالة، الثّقافة القوميّة في فلسطين خلال الانتداب البريطاني. ترجمة د. حسني

محمود، الأسوار، عكا (د.ت)، ص 14.

³ - حدّاد يوسف، ص 239.

استعمال المترادفات على غير حاجة إليها ولا فائدة، فهم لا يأتون بكلمة إلا أتبعوها بمرادفاتهما". ويخلص من هذا إلى أنّ استعمال مثل هذه المترادفات يدلُّ على "نزارة المادّة الفكرية".

كما أنّ السّكاكيني كان فاهماً لروح عصره، لذلك دعا إلى الإيجاز في الكتابة حيث يقول: "وأنت إذا تفقّدت كلام العرب في أشعارهم وأمثالهم وخطبهم ورسائلهم، علمت أنّهم يميلون إلى الإيجاز... فما قولك في عصر كادت تغلب فيه لغة التّلفراف". كما أنّه هاجم الشّعراء والكتّاب المولعين باستعمال الغريب حيث يقول: "بل كان منهم ولا يزال كثيرون من أولع بالغريب، فإذا رأى كلمة ورقة شائعة معروفة استعمل كلمة قرطاس، فإذا شاعت استعمل كلمة كاغد".⁽¹⁾

كما هاجم الذين يستعملون التّراكيب الجاهزة المحفوظة المعلّبة التي لا حياة فيها ولا روح. يقول: "الحياة، إذا أردتم أن يكون لكم موسيقى أو غناء أو شعر أو أدب، بل إذا أردتم أن يكون لكم وجود، فليكن فيه حياة وإلا فلستم إلا هياكل بالية"[13].

ملخص

خلف السّكاكيني وراءه الكثير من التّغييرات التي كانت بداية لتغييرات أكبر فيما بعد، فقد كان نشيطاً أدبياً وسياسياً واجتماعياً، ففي مجال الأدب قام بحملات كثيرة ضدّ القديم وللخروج عن المألوف، وفي السياسة وقف في وجه الاحتلال، كما أنّه وقف ضد الكنيسة عندما رأى الفساد المنتشر فيها. لقد آمن السّكاكيني بقضيّته وعمل من أجل تحقيقها، ولذلك فقد كان عمله صادقاً ونضاله ذا نفع على وطنه.

¹ - مجمع اللّغة العربيّة، خليل السّكاكيني والتّجديد، 2011:

<http://www.arabicac.com/?mod=articles&ID=373>

واجه السكاكيني الكثير من الصُّعوبات في حياته وصدمته الحياة في أكثر من موقع، فنراه ثوريًّا ذا طموح يدعو إلى تعريب اللُّغة بعد أن قام الإكليريكيُّون باغتصاب الكنيسة العليا، فثار ضدَّ الصَّلَاة والترانيم باللُّغة اليونانيَّة، ولكنَّه جوبه بالمعارضة ورفضه من الكنيسة، بل وحرمانه منها. حاول السكاكيني في بداية حياته أن يجابه الفقر فسافر إلى إنجلترا ومن ثمَّ إلى أمريكا، وهناك لم يحالفه الحظُّ أكثر من أشهر قليلة، عاد بعدها إلى بلده وعمل قريب السَّنَة، ثمَّ دقَّ الفقر بابَه من جديد. وتزوَّج حبيبة قلبه سلطانة، ثمَّ وبعد أن أنجبت له ولدًا وبناتًا وافتها المنية، فحزن حزناً شديداً وانطفأت الشَّمعة التي أوقدت حياته.

فيما بعد واجه المحنة الكبيرة وهي نكبة 1948، وكان منها أن هجَّرتَه من بيته الذي لم يقض فيه أكثر من عام، فرحل إلى القاهرة وهناك عاش على ذكرياته المؤلمة، فألَّف كتابًا لرثاء زوجته، ما كاد ينهيه حتَّى ابتلي بوفاة ابنه سري، وهنا انتهت آماله في الحياة، فحزن كثيرًا ولم يستطع الخروج من دائرة حزنه، فوافته المنية بعد موت ابنه بثلاثة أشهر ودفن في القاهرة.

المراجع:

1. حامد، أحمد حسن. السَّكَاكِينِي فِي النَّهْضَةِ الْفِكْرِيَّة. ط2، د.م: مكتبة النَّجَّاح، 1997.
2. السَّكَاكِينِي، خليل. كذا أنا يا دنيا (سيرة ذاتيَّة)، القدس المطبعة التِّجَارِيَّة، 1955م. ط2 اتِّحاد الكُتَّاب الْفِلَسْطِينِيَّيْن، بيروت، 1982.
3. السَّكَاكِينِي، خليل. ما تيسَّر، مذكِّرات ويوميَّات.
4. شاهين، أحمد عمر. موسوعة كُتَّاب فلسطين في القرن العشرين. د.م: دائرة الثَّقافة في منظمَّة التَّحْرِير الْفِلَسْطِينِيَّة. طبعة أولى: 1992.
5. سليم، تمارى. الحُبُّ والجوع في نيويورك: خليل السَّكَاكِينِي، يوميَّات، رسائل وتأمُّلات، 2003.
6. حدَّاد، يوسف أيُّوب. خليل السَّكَاكِينِي، حياته، مواقفه وآثاره، الاتِّحاد العام للكُتَّاب والصَّحْفِيَّيْن الْفِلَسْطِينِيَّيْن، 1991.
7. سليمان، محمَّد. صحف البدايات (1904 - 1922م) تَوْسَّس لِلنَّهْضَةِ الْاَدْبِيَّة الْفِلَسْطِينِيَّة، موقع مجلَّة "رؤية" الإلكتروني: [www.idsc.gov.ps].
8. يعقوب، أوس داود. خليل السَّكَاكِينِي. مؤسَّسة القدس للثقافة والتَّراث، موقع إلكتروني.
9. النُّسخة الإلكترونيَّة لمعجم البابطين للشُّعراء العرب المعاصرين.
10. الدَّرَاج، فيصل؟ السَّكَاكِينِي: الْقِضِيَّة الْوَطْنِيَّة وَأَحْلَام الْمَثَقَّف الرَّاقِي: يوميَّات خليل السَّكَاكِينِي. رام الله: د.ن، 2003.